أدب التوقيعات
عند الإمام الحسن العسكري عليه السلام
ـ دراسة في البواعث والمضامين والخصائص ـ

The Art of Signatures of the Imam Hassan Al-Askari (PBUH) Study of motivations, contents and characteristics

أ. د. مزاحم مطر حسين

جامعة القادسية

كلية التربية

Prof. Dr. Muzahim Mutar Hussain

University of Al-Qadissiyah

College of Education

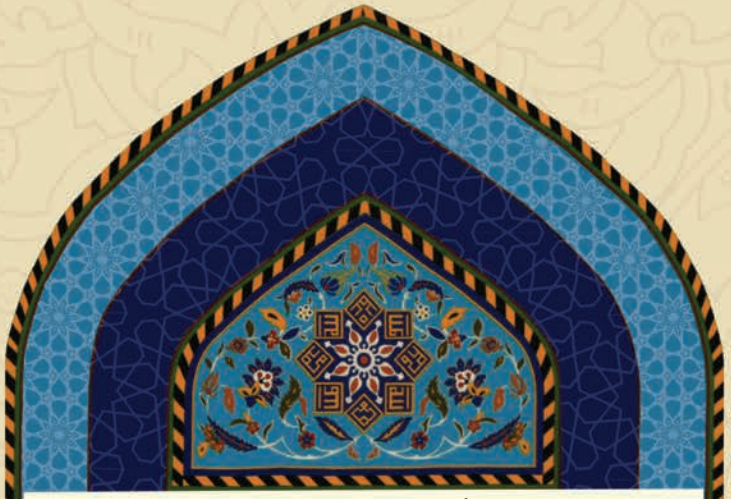

أدب التوقيعات
عند الإمام الحسن العسكري عليه السلام
ـ دراسة في البواعث والمضامين والخصائص ـ

الملخص:

ثمة ظروف خاصة أدت إلى ظهور نوع من التراسل بين الأئمة عليهم السلام وقواعدهم الشعبية، وقد عُرف هذا اللون الكتابي في المدونات الحديثية الشيعية بمصطلح (التوقيعات)، وتحاول هذه الدراسة استقراء البواعث التي أنتجت هذا اللون الكتابي، وأن ترصد تطوره التأريخي وصولاً إلى توقيعات الإمام الحسن العسكري عليه السلام؛ لتدرس أهم مضامينها، وتعكف على دراسة أهم الخصائص الأسلوبية المميزة لها.

الكلمات المفتاحية:

التوقيعات، الإمام الحسن العسكري عليه السلام، الخصائص، الأسلوب الخبري.

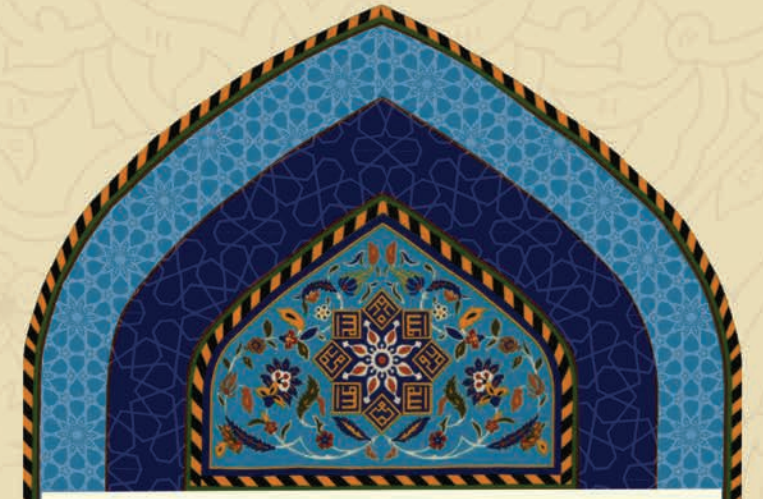

The Art of Signatures of the Imam Hassan Al-Askari (PBUH) Study of motivations, contents and characteristics

Abstract:

There were certain special circumstances that lead to the appearance of a type of messaging between Imams (PBUT) and their popular bases. This type of writing is known in the modern Shiite blogs as (signatures).

This study aims at investigating the motivations that produced this type of writing. It focuses on its historical development down to the signatures of Imam Hassan Al-Askari (PBUH) to study their most important contents and their distinguished stylistic features.

key words:
signatures, of Imam Hassan Al-Askari (PBUH) , characteristics, the news style

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، محمد واله الطيبين الطاهرين.

وبعد،

تقوم هذا الدراسة على تتبع نصوص (التوقيعات) التي تُعدّ من أهم وسائل التواصل بين الأئمة عليهم السلام وقواعدهم الشعبية، في حقبة زمنية كانت مليئة بأشدّ إجراءات التعسف والظلم، وفي ظروف التقية المكثفة والتضييق الشديد، عندما كان يُرصد على الأئمة أنفاسهم، وتُراقب حركاتهم وسكناتهم، فكانت توقيعات الإمام الحسن العسكري (استشهد سنة ٢٦٠هـ) متنفساً يهرع إليه الموالون كلما أحوجتهم المشكلات، أو اختلف الرأي عندهم في بعض المعضلات، أو احتاروا في حكم بعض قضايا الدين أو الدنيا.

واقتضت الدراسة مني أن أجعلها في ثلاثة مباحث، تسبقها مقدمة، وتعقبها خاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع.

فكان المبحث الأول تحت عنوان (تأريخ التوقيعات عند الأئمة عليهم السلام - البواعث والتطور) عرضت فيه لنشأة التوقيعات وتطورها في حياة الأئمة بحسب ما عرضت له المدونات الحديثية الشيعية، كما رصدت أهم البواعث التي تحكمت في نشأته وتطوره.

أما المبحث الثاني فقد كان بعنوان (مضامين التوقيعات عند الإمام الحسن العسكري عليه السلام)، وقد عرضت في هذا المبحث لأهم المضامين التي اشتملت عليها تلك التوقيعات.

وكان المبحث الثالث بعنوان (خصائص التوقيعات عند الإمام الحسن العسكري عليه السلام)، وقد فصّلت القول في الخصائص الأسلوبية التي ميّزت هذه التوقيعات.

وأجملت في الخاتمة أهم النتائج التي أسفرت عنها هذه الدراسة.

المبحث الأول

تأريخ التوقيعات عند الأئمة عليهم السلام

- البواعث والتطور -

أولاً: مفهوم التوقيعات :

تشير المعاجم اللغوية بوضوح إلى نقطتين مهمتين في حديثها عن مادة (التوقيع) وعلاقتها بالكتاب (الرسالة)، الأولى: تتعلق بإجراء يُحدثه الكاتب على الكتاب (الرسالة) بعد الانتهاء من كتابته

مجلة تراث سامراء
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

ف(التوقيع في الكتاب: إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه)[١]. والثانية: الارتكاز على ذكر الحاجة باختصار فـ (توقيع الكاتب في الكتاب المكتوب أن يجمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ويحذف الفضول)[٢].

ويمكن الاستنتاج من هاتين النقطتين، أن التوقيع في المفهوم اللغوي هو تعقيب يقوم به الكاتب بعبارات مجملة مختصرة بلا فضول من الكلام على الكتاب (الرسالة) بعد الانتهاء منها.

وهو ما ارتكز عليه تعريف التوقيع في المصطلح الأدبي الذي ذهب إلى أن التوقيع هو تعليق موجز مناسب على الرسائل التي ترفع إلى صاحب الشأن من الأفراد أو الولاة، يسترشد به في فصل الأمور وتنفيذ الأحكام[٣].

أما التوقيع في المدونات الحديثية الشيعية فهو: (عبارة عن جواب مكتوب يُجيب فيه الإمام عليه السلام عن سؤال أو أسئلة ترد عليه، وربما يصدر ابتداءً من دون أن يسبق السؤال)[٤]، والتوقيع بهذا المفهوم هو الذي تُعنى به هذه الدراسة، وتعمل على استقراء مصاديقه في مكاتبات أهل البيت عليهم السلام عموماً وفي مكاتبات الإمام الحسن العسكري على وجه الخصوص.

ثانياً: بواعث التوقيعات وتطورها في حياة الأئمة عليهم السلام:

لعل من الأمور الواضحة أن الأصل في تواصل الإمام مع الأمة في الظروف الطبيعية أن يكون اللقاء مباشراً حتى يتسنى للأمة أن تفيد من علم الإمام وتوجيهاته، غير أن ظروف التضييق على الأئمة من قبل سلاطين الظلم والجور أدت إلى تقليل مساحة هذا اللقاء إلى حدوده الدنيا، فلم يكن من سبيل أمام الأئمة إلا انتهاج الأساليب غير المباشرة في التواصل مع القواعد الشعبية، عن طريق شبكة الوكلاء المعتمدين من الإمام كحلقة وصل بينهم وبين الأمة، وكان من جملة مهامهم المتعددة القيام بإيصال الرسائل من الناس إلى الإمام وبالعكس في سرية تامة وبطرق متعددة من التخفي والتنكر، ولا شك أن الرسائل كانت ذات أهمية

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ٨، ص٤٠٦: مادة (وقع).

(٢) ابن منظور، المصدر نفسه: مادة (وقع).

(٣) محمود، عبد الرحيم، فنون النثر في الأدب العباسي، ص٩٢.

(٤) القطيفي، قراءة في توقيعات الناحية المقدَّسة، ص١١.

مجلة تراث سامراء
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/٢٠٢١م

بالغة في تحقيق مطالب الناس والإجابة عن استفساراتهم، فالتراسل بين الأئمة وشيعتهم كان أمراً متعارفاً عليه في أزمان تضييق الخناق على أهل البيت عليهم السلام، وكان من الطبيعي أن تختلف تلك الرسائل من حيث الطول والقصر بحسب ما يتطلبه المقام والحادثة التي يكتبون بها، وكلما زاد التضييق على أئمة أهل البيت، وقلّة مساحة اللقاء بشيعتهم، كلما ظهرت الحاجة إلى الرسائل القصيرة في التواصل، لسهولة نقلها، وإمكانية الحفاظ على سريتها، ومن يستقرئ رسائل الأئمة يجد أن جزءاً منها كان عبارة عن رسائل قصيرة وأجوبة مختصرة على أسئلة تقدم بها بعض الشيعة للأئمة، وكانت كتب المدونات الحديثية في بداية الأمر تصف تلك الرسائل الموجزة بعبارات متعددة تعبر بها عن قيام الإمام بإنشاء تلك الرسائل القصيرة، كأن تصفها بالقول (كتب، رأيت بخطه، رأيت في رقعة...) ولم تكن بعد يطلق عليها مصطلح (التوقيعات).

ولعل أول[1] استعمال لمصطلح (التوقيعات) في المدونات الحديثية الشيعية يظهر لنا في حياة الإمام الكاظم عليه السلام الذي شهدت حياته مختلف أساليب الرقابة المفروضة من قبل السلطة الحاكمة، وهذا لا يعني بحال من الأحوال أن الأئمة قبل الإمام الكاظم عليه السلام كانوا يعيشون حياتهم بحرية تامة؛ وإنما كان هناك هامش من الحرية قد يسمح باللقاء مع الرواة والمحدثين بشكل مباشر بين الحين والآخر يقل أو يزداد من مدة إلى أخرى بحسب الظروف التي يمر بها السلاطين والحكام، وإلا فإن الحكام يسيرون على منهج واحد أساسه التضييق على الأئمة وإبعاد الناس عنهم، مما يضطر الشيعة إلى اللجوء إلى مراسلة الإمام، وكان الإمام يجيب بالتوقيع على الكتاب نفسه كما نجد في رواية الحسن بن علي الوشا الذي يذكر لنا توقيع الإمام الكاظم عليه السلام على رقعة قدمها خاله قائلاً: (حججت أيام خالي إسماعيل بن إلياس، فكتبنا إلى أبي الحسن الأول عليه السلام، فكتب خالي: إنّ لي بنات وليس لي ذكر، وقد قلّ رجالنا، وقد خلفت امرأتي وهي حامل، فادع الله أن يجعله غلاماً، وسمه. فوقع في الكتاب: «قد قضى الله تبارك وتعالى حاجتك، وسمّه محمداً»)[2].

(١) القطيفي، قراءة في توقيعات الناحية المقدَّسة، ص١١-١٢.

(٢) الحميري، قرب الإسناد، ص٣٣١- ٣٣٢، وينظر: الإربلي، كشف الغمة، ج٣، ص٣٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٧،ص٤٣؛ الميانجي،

مجلة تراث شاهرة
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

وكما في جواب الإمام الكاظم عليه السلام عن حكم جواز الصلاة المفروضة في المحامل أو على الدواب في حال المطر وما يسببه من حرج شديد، فوقع عليه السلام: (يجوز ذلك مع الضرورة الشديدة)[١].

ومن هنا برز في حياة الأئمة نوع كتابي من التراسل يسمى (التوقيعات) يعتمد الإيجاز المركز في المكاتبة الموجزة، ويلبي حاجة القواعد الشعبية ويجيب على أسئلتهم المختلفة، وهو أشبه ما يكون بالبرقيات السريعة القادمة من الإمام، فكانت التوقيعات الموجزة هي السبيل الناجع في الاستجابة السريعة لحوائج الناس وأسئلتهم المتعددة.

وقد شهدت تلك التوقيعات ازدهاراً متصاعداً كلما زاد التضييق على الأئمة وشيعتهم، وشهدنا بعد ذلك كثرة التوقيعات عند أئمة أهل البيت الذين عرفت حياتهم تضييقاً بالسجن أو الإقامة الجبرية، وقد مثلت تلك التوقيعات نقطة تحول في تاريخ التشيع بوصفها آلية تواصل فاعلة بين الأئمة وقواعدهم الشعبية، بعدما أحكم السلاطين قبضتهم في مراقبة تحركات الأئمة عليهم السلام، عبر زرع الجواسيس والعيون التي كانت تحصي على الأئمة أنفاسهم، وترقب حركاتهم وسكناتهم، وتضيق على الشيعة سبل الالتقاء بالأئمة.

ويزداد الاهتمام بالتوقيعات كلما تقدم الأمر مع الأئمة التالين، فنجد اتساعاً في مساحتها في مكاتبات الإمام الرضا عليه السلام، حتى إن كتب المدونات الحديثية تورد استعمالاً لمصطلح (توقيعات الرضا عليه السلام)[٢] التي تشمل مختلف أبواب المسائل العقائدية والأحكام الفقهية المتعددة التي تسردها لنا تلك المدونات الحديثية[٣].

كما في جواب الإمام الرضا لأحد الشيعة شكا للإمام جفاء أهل منطقته له، ووجود عصابة من العثمانية تؤذيه. فوقع بخطه: (إن الله تبارك وتعالى أخذ ميثاق

مكاتيب الأئمة، ج٤،ص٣٩٥.

(١) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٣، ص٢٣١، وينظر: الحرّ العاملي، وسائل الشيعة،ج٤، ص٣٢٦، والميانجي، المصدر السابق، ج٤، ص٤٠٨

(٢) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٤٢، وينظر: الحرّ العاملي، المصدر السابق، ج٩،ص ٥٠٨، والميانجي: المصدر السابق، ص١٣٩.

(٣) ينظر: الطوسي، تهذيب الأحكام، ج١، ص٢٤٤، ج٢، ص٢٠٦، ج٣،ص٢٢٨،وينظر: الكليني، الكافي، ج٣، ص٥١٠، وينظر: المفيد، الاستبصار، ج٣، ص٢٨٩، وينظر: الحرّ العاملي، المصدر السابق، ج٢٢، ص١٢٧.

مجلة تراث سامراء
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/٢٠٢١م

أوليائنا على الصبر في دولة الباطل «فاصبر لحكم ربك»[١]، فلو قد قام سيد الخلق لقالوا: «يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون»[٢])[٣].

ويصبح أمر التوقيعات من الأمور المتعارف عليها في حياة الشيعة، ويزداد رسوخاً في مكاتباتهم، إذ تورد كتب المدونات الحديثية توقيعات متعددة المضامين تشمل المسائل العقائدية والأحكام الفقهية بفروعها المختلفة للإمام الجواد عليه السلام[٤] والإمام الهادي عليه السلام[٥] بما يجعلنا مطمئنين تماماً إلى استقرار هذا الاستعمال الاصطلاحي في هذا النوع من التراسل الموجز.

وتبرز الأهمية الخاصة للتوقيعات عندما يصل بنا الحديث إلى الإمام العسكري، إذ من المعلوم أن الظروف المحيطة بالإمام أصبحت أكثر تعقيداً، إذ من المعلوم أن السلاطين قد أجبروا الإمام الحسن العسكري على ترك موطنه الأصلي في المدينة المنورة، وفرضوا عليه الإقامة الجبرية في مدينة سامراء، ولم تكتف السلطات بهذا الأمر وإنما طالبته بالمثول بين يديها في دار الخلافة في كل يوم اثنين وخميس[٦] من كل أسبوع حتى يطمئنوا أن الإمام ما يزال تحت أعين الرقابة الشديدة، ولا شك أن هذه الإجراءات الصارمة من السلاطين قد خلقت مشكلة كبيرة في التواصل مع الإمام العسكري عليه السلام، ولعل من شواهد مسألة صعوبة التواصل مع الإمام أن بعض الموالين كان يتحين الفرص للنظر إلى الإمام أثناء خروجه، فقد ورد في بعض الروايات أن أحد الشيعة قال مصوراً صعوبة رؤية الإمام: (وافت جماعة من الأهواز من أصحابنا وكنت معهم، وخرج السلطان إلى صاحب البصرة فخرجنا لننظر إلى أبي محمد عليه السلام، فنظرنا إليه ماضياً معه، وقعدنا بين الحائطين بسر

---

(١) سورة القلم، الآية ٤٨.

(٢) سورة يس، الآية ٥٢.

(٣) الكليني، المصدر السابق، ج٨، ص٢٤٧، وينظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٣، ص٨٩.

(٤) ينظر: الطوسي، رجال الكشي، ج٢، ص٨٣٩؛ الراوندي، الخرائج والجرائح، ج١، ص٣٨٦؛ والكليني، الكافي، ج٣، ص٤٥٥؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه،ج٢، ص٤٤٣.

(٥) ينظر: الكليني، الكافي، ج١، ص١٠٧-١٢٦؛ الإربلي، كشف الغمة، ج٢، ص٣٨٨؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج١، ص٢٦٠؛ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج٤، ص٢٠٤.

(٦) ينظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٥١.

مجلة تراث سامراء
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

من رأى ننتظر رجوعه)[١].

وهو ما تؤكده روايات أخر ذكرت أن الشيعة كانوا يسلكون هذا المسلك في الترصد والترقب لرؤية الإمام عندما يخرج، إلى أن جاءهم التوقيع التحذيري من الإمام بحسب ما رواه علي بن جعفر الحلبي الذي يقول: (اجتمعنا بالعسكر، وترصدنا لأبي محمد عليه السلام يوم ركوبه، فخرج توقيعه عليه السلام: ألا لا يسلّمن علي أحد، ولا يشير إليّ بيده، ولا يومئ أحدكم، فإنكم لا تأمنون على أنفسكم)[٢].

وهذا النص يكشف بوضوح تام مدى الرقابة الشديدة التي كانت تحيط بالإمام وتمنعه من الالتقاء والتواصل مع شيعته، بحيث يضطر الموالون إلى تحين بعض الفرص والمواقف للالتقاء بالإمام حتى يأمنوا على أنفسهم من عيون السلطة.

فكانت التوقيعات هي السبيل للتواصل مع الشيعة، وكانت هذه التوقيعات تخرج بخط الإمام الحسن العسكري بنوع من الخط المميز المعروف لدى الشيعة، وقد بقيت الكتابة بهذا الخط المميز متبعة حتى في زمن الإمام الحجة عليه السلام، في خطوة مقصودة ترمي إلى إيجاد الاطمئنان في النفوس، وحتى لا يختلف الأمر على الشيعة، لأن الكثير منهم كان يعرف خط الإمام الحسن العسكري، وهو ما تؤكده المدونات التي تحدثت عن التوقيعات التي كانت تخرج على أيدي السفراء في عصر الإمام الحجة عليه السلام[٣].

ومما هو جدير بالذكر هنا أن (التوقيعات) عند الأئمة، قد شكلت ظاهرة استدعت من بعض مؤلفي الشيعة في بادرة رائدة في تأريخ التأليف أن يعقدوا العزم للتصدي لجمع تلك التوقيعات في مؤلفات مستقلة، ومن أشهر تلك الكتب:

كتاب التوقيعات: محمد بن عيسى بن عبيد (كان حياً ٢٥٤هـ)[٤].

كتاب مسائل أبي محمد وتوقيعاته: عبد الله بن جعفر الحميري (ت٣١٠هـ)[٥].

كتاب التواقيع من أصول الأخبار: أبو طالب عبد الله بن الصلت القمي[٦].

---

(١) ينظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٩٤.

(٢) المجلسي، المصدر نفسه، ج٥٠، ص٢٦٩.

(٣) المجلسي، المصدر نفسه، ج٥١، ص٣٤٦-٣٥٢.

(٤) ينظر: الطوسي، رجال النجاشي، ص٣١٩.

(٥) ينظر: المصدر نفسه، ص٢١١.

(٦) ينظر: ابن طاووس، فرج المهموم، ص١١٤؛

ومع أن هذه الكتب لم تسلم من عادية الزمن؛ إلاّ أنه يمكن الاطمئنان إلى وجود جهد تأليفي في خصوص التوقيعات المتعلقة بالأئمة عليهم السلام، ولا سيما فيما يتعلق بالإمام الحسن العسكري ؛لأن كتاب عبد الله بن جعفر الحميري مختص بمسائل الإمام وتوقيعاته كما يظهر واضحاً من عنوانه.

ومما تقدم يظهر أن التوقيعات في حياة الأئمة برزت كنتيجة لذلك التضييق والرقابة التي شهدتها حياة الأئمة؛ إذ كان لا بد من انتهاج وسيلة جديدة في التواصل الفاعل مع القواعد الشعبية، فكانت التوقيعات من أنجع تلك السبل وأفضلها في تلك المرحلة، وقد حققت تلك التوقيعات ما كان مرجواً منها في جعل الموالين على بينة من أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم، كما أن هذه الطريقة في التواصل بين الأئمة وشيعتهم حفظت دماء الموالين لأهل البيت وجنبتهم الكثير من مخاطر المراقبة والملاحقة والاعتقال، وليس هذا فحسب وإنما جعلت الطريق واضحاً في كيفية تلقي توجيهات الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف عبر تلك التوقيعات فيما بعد.

وينظر: العريضي، مسائل علي بن جعفر، ص٣٤٩-٣٥٠.

المبحث الثاني

مضامين توقيعات الإمام الحسن العسكري عليه السلام

اتسعت مساحة توقيعات الإمام العسكري، وتنوعت في موضوعاتها بحسب تعدد الرقاع والرسائل التي كان الموالون يبعثون بها إلى الإمام عليه السلام، وقد كان الإمام يتولى الإجابة بنفسه عن تلك الرقاع والرسائل. وهذه التوقيعات كانت على نحوين، فمنها ما كان يكتبه الإمام ابتداءً، بمعنى أن يبادر الإمام بالتوقيع ويخرجه للموالين من غير أن تكون ثمة رسالة مرسلة منهم، فيوجههم بما يراه مناسبا لهم.

أما النحو الآخر ـ وهو الأكثر وروداً ـ فيكون توقيع الإمام فيه رداً على رسالة مرسلة إليه، فيقوم الإمام بالتعليق المناسب على تلك الرقاع.

وعلى الرغم من تعدد موضوعات تلك التوقيعات وتلون أغراضها؛ فإنه يمكن أجمالها في المحاور الأتية:

مجلة تراث سامراء
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

أولاً: توقيعات المسائل العقائدية :

ونقصد بها تلك التوقيعات التي تضمنت الإجابة عن بعض المسائل العقائدية، ولعل من أهم القضايا التي شغلت بال المسلمين في ذلك الوقت هي مسألة (رؤية الله)، وقد كانت الرسائل ترد إلى الإمام العسكري بهذا الشأن، فكانت توقيعاته تبطل تلك الرؤية المزعومة، كما في رسالة يعقوب بن إسحاق الذي يقول: (كتبت إلى أبي محمد عليه السلام أسأله: كيف يعبد العبد ربه وهو لا يراه؟ فوقع عليه السلام: يا أبا يوسف، جلّ سيدي ومولاي والمنعم عليّ وعلى آبائي أن يرى. قال: وسألته: هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه؟ فوقع عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى أرى رسوله بقلبه من نور عظمته ما أحب)[١].

وقد يتضمن التوقيع إشارة إلى فحوى سؤال السائل قبل وضع التوقيع عليه، كما في رسالة سهل بن زياد الآدمي الذي يقول: (كتبت إلى أبي محمد عليه السلام ـ سنة خمس وخمسين ومئتين ـ : قد اختلف يا سيدي أصحابنا في التوحيد، منهم من يقول: هو جسم، ومنهم من يقول: هو صورة، فإن رأيت يا سيدي أن تعلمني من ذلك ما أقف عليه ولا أجوزه فعلت متطولاً على عبدك.

فوقع بخطه عليه السلام:

سألت عن التوحيد، وهذا عنكم معزول، الله تعالى واحد، أحد، صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد. خالق وليس بمخلوق، يخلق تبارك وتعالى ما يشاء من الأجسام وغير ذلك، ويصور ما يشاء، وليس بمصور، جل ثناؤه وتقدّست أسماؤه، وتعالى عن أن يكون له شبه، هو لا غيره، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير)[٢].

فعبارة (سألت عن التوحيد) فيها إشارة إلى مضمون السؤال السابق.

ثانياً: توقيعات نشر الطمأنينة في نفوس المحبين:

ونقصد بها تلك التوقيعات التي تأتي في سياق بثّ روح الطمأنينة في نفوس الموالين للإمام، ولاسيما بعد صدور بعض التهديدات من الظلمة حيال حياة الإمام والتوعد بقتله، وإلحاق الأذى به وحرمانه

(١) الكليني، المصدر السابق، ج١، ص٩٥؛ المجلسي المصدر السابق، ج٤، ص٤٣؛ الميانجي: المصدر السابق، ج٦، ص٢٥٥-٢٥٦.

(٢) الميانجي، المصدر السابق، ج١، ص١٠٣، وينظر: المجلسي، المصدر السابق، ج٣، ص٢٦٠-٢٦١.

من استمرار النسل الطاهر.

كما في توقيعه الذي يرويه موسى بن جعفر البغدادي بقوله (خرج من أبي محمد عليه السلام توقيع: زعموا أنهم يريدون قتلي ليقطعوا نسلي، وقد كذب الله قولهم والحمد لله)[1].

ويظهر واضحاً أن هذا التوقيع من التوقيعات الابتدائية؛ لأنه لم يكن جواباً على رسالة متقدمة، وإنما بادر به الإمام ليطمئن الشيعة على حياته، ويبشرهم بتحقيق الوعد الإلهي باستمرار هذا النسل المبارك.

ومثله أيضاً ما كتبه الإمام عندما خرج من حبس المعتمد بجملة مختصرة، هي عبارة عن آية قرآنية واحدة، فقد روى بعض الشيعة أنه قال: (رأيت خط أبي محمد عليه السلام لما خرج من حبس المعتمد: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[2])[3].

وهذا التوقيع يجري في سياق التوقيع السابق في كونه من التوقيعات التي ابتدأها الإمام من غير أن يرسل أحدهم رسالة مسبقة، كما انه يتفق مع التوقيع السابق في غرضه الذي يرمي إلى إدخال الاطمئنان على نفوس المحبين بإنجاز وعد الله بإتمام النور المتمثل بالأئمة عليهم السلام رغماً عن أنوف الظالمين.

وكما في حديث أحمد بن محمد الذي كان قلقاً على حياة الإمام عليه السلام، إذ يقول: (كتبت إلى أبي محمد عليه السلام حين أخذ المهتدي في قتل الموالي: يا سيدي، الحمد لله الذي شغله عنا، فقد بلغني أنه يتهددك ويقول: والله لأجلينهم عن جديد الأرض.

فوقع أبو محمد عليه السلام بخطه: ذاك أقصر لعمره، عدّ من يومك هذا خمسة أيام ويقتل في اليوم السادس بعد هوان واستخفاف يمرّ به. فكان كما قال عليه السلام)[4].

ومن أمثلة ذلك أيضاً توقيع الإمام عليه السلام عندما انتشر خبر طلب المعتز

(١) الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص٣٠٤؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٥١،ص ١٦٠؛ والميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٢٧١.

(٢) سورة الصف، الآية ٨.

(٣) ابن طاووس، منهج الدعوات، ص٣٣١؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٥٠، ص٣١٤؛ والميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٢٧٢.

(٤) الكليني، المصدر السابق، ج١، ص٥١٠؛ المفيد، الإرشاد، ج٢، ص٣٣٣؛ ابن طاووس، المصدر السابق، ص٣٢٩؛ ابن شهر، آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج٤، ٤٢٢؛ والميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٢٩٣.

العباسي من سعيد الحاجب بإخراج الإمام إلى الكوفة وضرب عنقه في الطريق، فجاء توقيعه عليه السلام: (الذي سمعتموه تكفونه. فخلع المعتز بعد ثلاث وقتل)[1].

فهذه التوقيعات تستهدف بالدرجة الأولى خلق حالة من الطمأنينة والسكينة في قلوب المحبين الخائفين على حياة الإمام عليه السلام.

ثالثاً: توقيعات الردّ على المعترضين:

ونقصد بها تلك التوقيعات التي تصدر في مقام الرد على بعض المعترضين على كلام الأئمة أو تصرفاتهم، فتأتي التوقيعات للردّ على تلك الاعتراضات، كما حصل في توهم بعضهم أن في بعض كلام الإمام لحناً لا يتفق مع قواعد النحو، فبينما هم في هذا الحال ورد عليهم توقيع الإمام عليه السلام: (ما بال قوم يلحنوننا، وإن الكلمة نتكلم بها تنصرف على سبعين وجهاً، فيها كلها المخرج منها والمحجة)[2].

والنص قد استعمل الاستفهام على نحو الإنكار والتعجب ليرد على اعتراض المعترض، ويكشف بوضوح عن التوهم الذي وقع فيه ذلك الشخص من وقوع اللحن في كلام الأئمة عليهم السلام.

رابعاً: توقيعات الإجابة على طلب الدعاء:

ونقصد بها تلك التوقيعات التي تأتي إجابة على ما تحمله بعض رقاع المؤمنين من طلب الدعاء من الإمام لبعض شؤونهم الخاصة، فتأتي توقيعات الإمام متناسبة مع تلك الطلبات، فقد يحمل التوقيع جملاً دعائية بحسب ما تتطلبه تلك الرقاع، فيتحقق المطلوب لدى طالب الدعاء، ومن أمثلة هذا النوع ما حصل لأحد الموالين الذي يقول: (كتبت إلى أبي محمد عليه السلام أسأله أن يدعو الله لي من وجع عيني، وكانت إحدى عيني ذاهبة، والأخرى على شرف ذهاب، فكتب إلي: حبس الله عليك عينيك، فأفاقت الصحيحة، ووقع في آخر الكتاب: آجرك الله وأحسن ثوابك فاغتممت بذلك ولم أعرف في أهلي أحداً مات، فلما كان بعد أيام جاءني وفاة ابني طيب، فعلمت أن التعزية له)[3].

(١) ابن شهر آشوب، المصدر السابق، ج٤، ص٤٣٦؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٢٩٣.

(٢) النوري، الميرزا حسين، خاتمة مستدرك الوسائل، ج١، ص٢٩٦.

(٣) الكليني، المصدر السابق، ج١، ص٢٩٦؛ ابن شهر، آشوب، المصدر السابق، ج٤، ص٤٣٢؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٥٠، ص٢٨٥.

مجلة تراث شاهرة
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/٢٠٢١م

أ. د. مزاحم مطر حسين

ومثله ما ذكره أحد الموالين من أن أباه كتب إلى الإمام عليه السلام، يعرفه أنه ما صحّ له حمل بولد يولد، ويعرّفه أن له حملاً، ويسأله أن يدعو الله في تصحيحه وسلامته، وأن يجعله ذكراً نجيباً من مواليهم. (فوقع على رأس الرقعة بخط يده: قد فعل الله ذلك فصحّ الحمل ذكراً)[١].

وقد يحمل التوقيع بشارة لصاحب الدعاء بدلاً من الدعاء لصاحب الرسالة، كما حصل مع أحد الموالين الذين طلبوا الدعاء بالفرج من ضيق شديد يمرّ به، فجاء جواب الرسالة: (الفرج سريع، يقدم عليك مال من ناحية فارس)[٢]، وقد تحقق ما قاله الإمام بعد أيام قليلة، إذ حصل السائل على أرث من ابن عم له مات في ناحية فارس.

خامساً: توقيعات الأحكام الفقهية:

ونقصد بها تلك التوقيعات التي حملت مضامينها إيضاح الأحكام الشرعية، ولعل هذا النوع من أكثر التوقيعات وفرة، فالناس تأخذ أحكامها الفقهية من المنبع الصافي، وأهل البيت أدرى بما فيه، وقد تنوعت هذه الأسئلة الفقهية وتعددت بتعدد أبواب الحياة وتشعبها، فكانت توقيعات الإجابة على هذه الأسئلة توجه المسلمين وترجعهم إلى الطريق السديد، وتنهي حالة الأخذ والردّ والحيرة والتردد والشك.

ومن أمثلة هذا النوع ما ورد على الإمام بشأن قيام بعضهم بتأجيل ختان الأولاد في اليوم السابع، فجاء توقيع الإمام عليه السلام بالنهي عن مخالفة السنّة المطهرة: (السنّة يوم السابع فلا تخالفوا السنن إن شاء الله)[٣].

ومن أمثلة هذا النوع أيضاً، ما كتب به أحد الموالين للإمام يسأله عن حكم التصرف في منافع ضيعة أو خادم كان ثمنهما من قطع الطريق أو من السرقة،

(١) الطوسي، رجال النجاشي، ج٢، ص٢٩٧؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٥٠، ص٣٠٢.

(٢) الراوندي، الخرائج والجرائح، ج١، ص٤٤٧؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٥٠، ص٢٧٣؛ والميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٠٦.

(٣) الكليني، المصدر السابق، ج٦، ص٣٥؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٤٨٨؛ الميانجي، المصدر السابق، ص٣١٧.

مجلة تراث شاهرة
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/٢٠٢١م

فوقع الإمام عليه السلام: «لا خير في شيء أصله حرام، ولا يحل استعماله»[١].

ومثاله أيضاً ما كتبه أحدهم بشأن حكم وديعة كانت عند رجل فدفعها إلى جاره فضاعت، فوقع الإمام عليه السلام: «هو ضامن لها إن شاء الله»[٢].

سادساً: توقيعات التحذير من المخاطر:

وقد يكتب بعض الموالين رسائل يستشيرون بها الإمام بشأن بعض النشاطات الحياتية التي يعزمون القيام بها، فتخرج لهم توقيعات الإمام تحمل تحذيراً لهم من بعض المخاطر المحدقة بهم، كما حصل مع أحد الموالين الذين عرض عليهم بعض أصدقائهم الدخول معهم في شراكة لشراء الثمار في بعض النواحي، فكتب اليه: «لا تدخل في شيء من ذلك، ما أغفلك عن الجراد والحشف»[٣]، فكان الأمر كما حذر الإمام من وقوع الجراد وإفساد الثمار، وتحشف ما تبقى من تلك الثمار، وسلم ذلك الرجل من الخسارة ببركة ذلك التحذير.

وقد يبادر الإمام بإرسال التوقيع التحذيري لبعض الأشخاص ليتجنبوا تلك المخاطر، كما حصل مع (علي بن محمد بن زياد الصيمري) الذي خرج إليه توقيع الإمام عليه السلام: «فتنة تخصّك، فكن حلساً من أحلاس بيتك)[٤]، فحصل ما حذر منه الإمام تماماً، ويلحظ في هذا التوقيع حرص الإمام على سلامة أتباعه بإرسال التوقيع ابتداء إلى الشخص الذي قد أحاط به الخطر المحدق.

---

(١) الميانجي، المصدر السابق، ج٥، ص١٢٥؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٦، ص٣٦٩؛ المفيد، الاستبصار، ج٣، ص٦٧؛ والحرّ العاملي، المصدر السابق، ج١٧، ص٨٦؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٣٣.

(٢) الميانجي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٣٩؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٧، ص١٨٠؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٠٤؛ الحرّ العاملي، المصدر السابق، ج١٩، ص٨١؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٣٥.

(٣) الإربلي، المصدر السابق، ج٢، ص٤٢٣؛ المجلسي، المصدر السابق، ج١٠، ص٢٩٠؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٠٨.

(٤) الإربلي، المصدر السابق، ج٢، ص٤١٧؛ الراوندي، المصدر السابق، ج١، ص٤٥٢؛ المجلسي، المصدر السابق ج٥٠، ص٢٩٧؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٠٧.

مجلة تراث سامراء
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/٢٠٢١م

المبحث الثالث

خصائص توقيعات الإمام الحسن العسكري عليه السلام:

تمتاز توقيعات الإمام الحسن العسكري عليه السلام بمجموعة من الخصائص يمكن أن نجملها بالأتي:

أولاً: بناء التوقيعات اللغوي:

طبعت لغة التوقيعات بطابع اللغة الواضحة السهلة البعيدة عن التعقيد والوعورة والغموض، ذلك أنها موجهة بلغة كتابية إلى قارئ قد لا يتسنى له اللقاء بالإمام ليستوضح منه ما استبهم عليه ـ بحكم الوضع المعروف للإمام ـ ولذا كانت هذه التوقيعات تتوخى الوضوح التام في لغتها.

كما غلب التعبير الموجز على لغة تلك التوقيعات، وقد يستدعي المقام أو حال المتلقي ـ في أحيان قليلة ـ أن يطيل الإمام في توقيعه لضرورة يقتضيها سياق الحال، فيعمد الإمام إلى تفصيل بعض الأمور دون أن يخل ذلك بسمة الإيجاز العامة التي طبعت التوقيعات بطابعها.

والتوقيعات بشكل عام ذات جمل قصيرة مركزة، وهو ما يتناسب مع الغرض المطلوب منها، فهي توقيعات غرضها الأساس الإبلاغ عن رأي الإمام عليه السلام بمسألة معينة، على نحو الاختصار.

وهي في طابعها العام من إنشاء الإمام وإبداعه، ويكاد يختفي التناص بينها وبين النصوص الحكمية السابقة إلا فيما يتعلق ببعض التناصات القرآنية القليلة، كما في توقيع الإمام في الإجابة على سؤال بعضهم عن التوحيد فكان جوابه: «سألت عن التوحيد، وهذا عنكم معزول، الله واحد، أحد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، خالق وليس بمخلوق يخلق تبارك وتعالى ما يشاء من الأجسام وغير ذلك، وليس بجسم، ويصور ما يشاء وليس بصورة، جل ثناؤه وتقدست أسماؤه أن يكون له شبه، هو لا غيره، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»(١)؛ إذ لا يخفى ما في هذ التوقيع من اقتباس قرآني مباشر من قوله تعالى: ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾(٢)، ومن قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾(٣).

(١) الكليني، المصدر السابق، ج١، ص١٠٣؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٣، ص٢٦٠؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٢٥٦.

(٢) سورة الإخلاص، الآية ٣-٤.

(٣) سورة الشورى، الآية ١١.

مجلة تراث شاهرة
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

وقد يكون الاقتباس القرآني غير مباشر كما ورد من أنّ رجلاً اعتل ولده، فكتب للإمام يسأله الدعاء، فخرج توقيعه (أوما علم علي أن لكل أجل كتاباً، فمات الابن)[١]، ولا يخفى أن توقيع الإمام هذا ناظر إلى الآية القرآنية الكريمة ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[٢]، والتوقيع كما هو واضح يحمل تسلية لطالب الدعاء بأن الأمر الإلهي قد مضى على غير ما يتمنى صاحب الرسالة، مستدلاً بالآية القرآنية الكريمة التي أوجزت المطلوب تماماً.

ولغة التوقيعات في عمومها هي اللغة المرسلة المبتعدة عن قيود الصنعة البديعية من السجع وغيره، وأسلوبها متحرر من التكلف، وهذا ما يقتضيه سياق الظرف الذي يمرّ به الإمام وشيعته، فليس المقام مقام الترف اللغوي والتزويق البديعي واللعب بالصياغات اللغوية، بل هو مقام التبليغ، وإيصال الأحكام، والتوجيه في أوضح عبارة، وأكثرها اختصاراً، في ظروف التضييق الاستثنائية.

(١) الراوندي، المصدر السابق، ج١، ص٤٣٨؛ الإربلي، المصدر السابق، ج٢، ص٤٢٨؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٥٠، ص٢٦٩؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٠٣.

(٢) سورة الرعد، الآية ٣٨.

ثانياً: الأسلوب الخبري:

ولعل من أكثر خصائص التوقيعات وضوحاً هو غلبة الجمل ذات الطابع الخبري، وقد جاءت الجمل الإخبارية حاسمة في مضمونها، وبلغة جازمة عارفة بالحكم القطعي للموضوع، وبنبرة واثقة متأكدة من النتيجة، وخصوصاً عند الإخبار ببعض الحوادث المستقبلية، وهذه الميزة من خصائص البيت النبوي الطاهر نظراً لاتصال علمهم بمنبع التشريع الإلهي.

وقد غلب على التوقيعات حضور الجمل الخبرية الابتدائية الخالية من المؤكدات في المرتبة الأولى، يليه حضور الجمل الخبرية الطلبية المؤكد بالمرتبة الثانية، ويكاد يختفي الخبر الإنكاري من توقيعات الإمام الحسن العسكري؛ لأنها موجهة في الأعم الأغلب إلى أناس يرغبون بمعرفة رأي الإمام وتوجيهاته من غير أنكار أو مخالفة ومن أمثلة هذا الخبر الابتدائي الذي يخلو من المؤكدات ما ورد في بيان الأحكام الشرعية كحكم غسل الميت في سؤال أحدهم عن حدّ الماء الذي يغسل به الميت؟ فوقع الإمام: (حدّ غسل الميت يغسل حتى يطهر إن شاء الله)[٣].

(٣) الكليني، المصدر السابق، ج٣، ص١٣٠؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج١، ص٤٣١؛

مجلة تراث سامراء
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/٢٠٢١م

وكانت الأداتان (قد، وإن) من أكثر الأدوات المؤكدة حضوراً في الأخبار الطلبية، كما في جواب رسالة رجل كتب للإمام يسأله الدعاء لابنه العليل، فكتب الإمام عليه السلام: «قد عوفي ابنك المعتل ومات الكبير وصيّك وقيّمك، فاحمد الله ولا تجزع فيحبط أجرك»[١] فكان كما أخبر الإمام تماماً. فقد استعمل الإمام الأداة المؤكدة (قد) دفعاً للشك أو التردد في قبول مضمون الخبر بالنظر إلى أن هذا الخبر من الأمور المستقبلية التي قد يتردد في قبوله الناس عادة.

وكما في توقيع الإمام عليه السلام بشأن أحد طغاة عصره «أني نازلت الله في هذا الطاغي ـ يعني الزبيري ـ وهو آخذه بعد ثلاث»[٢]. فلما كان اليوم الثالث حصل ما أخبر به الإمام تماماً ونلاحظ بوضوح استعمال الإمام الخبري الطلبي المؤكد ب(إنّ) دفعاً للتردد والشك الذي قد يساور بعض السامعين في تحقق مضمون الخبر.

ويأتي الأسلوب الخبري لتوضيح أمر قد خفي عن الناس، كما في حصل مع رجل بعث برسالة للإمام ونسي أن يسأله فيها عن الموقف من (صاحب الزنج) الذي خرج بالبصرة، فخرج توقيع الإمام عليه السلام «صاحب الزنج ليس من أهل البيت»[٣]. بلهجة متأكدة، وبجملة خبرية ابتدائية غير محتاجة للتأكيد.

وقد يأتي الأسلوب الخبري لبيان حكم شرعي في حق من الحقوق، كما في جواب سائل يسأل عن كيفية توزيع ميراث امرأة ماتت وتركت زوجها وأبويها أو جدها، فخرج توقيع الإمام عليه السلام: «للزوج النصف وما بقي فالأبوين»[٤] بعبارة مختصرة وبجملة خبرية حاسمة.

الحرّ العاملي، المصدر السابق، ج١، ص٤٩١؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٢٠.

(١) الكليني، المصدر السابق، ج١، ص٥١١؛ ابن شهرآشوب، المصدر السابق، ج٤، ص٤٣٣؛ الإربلي، المصدر السابق، ج٢، ص٤٢٤؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٥٠، ص٢٨٥؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٠٦.

(٢) الإربلي، المصدر السابق، ج٣، ص٢٠٧؛ المجلسي المصدر السابق، ج٥٠، ص٢٩٧؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٢٩٣.

(٣) الميانجي، المصدر نفسه، ج٣، ص٢٢٠؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٥٠، ص٢٩٣؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٠٨.

(٤) الكليني، المصدر السابق، ج٧، ص١١٤؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٩، ص٣١٩؛ المفيد، الاستبصار، ج٤، ص١٦١؛ الحرّ العاملي، المصدر السابق، ٢٦، ص١٣٥؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٤٧.

مجلة تراث شاهرة
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

وكما في بيان حكم الزواج من امرأة أرضعت ولداً لرجل، هل يحلّ لذلك الرجل أن يتزوج ابنة تلك المرضعة؟ فكان التوقيع جازماً حاسماً مختصراً: «لا، لا تحل له»[١].

ومما يلحظ في خصوص الأسلوب الخبري أن قسماً منه قد خرج لأغراض بلاغية تفهم من السياق ومن قرائن الأحوال، وأبرز هذه الأغراض هو خروج الأسلوب الخبري لغرض الأمر، فاللفظ ظاهره الخبر ومعناه الأمر، وهو من أكثر الأغراض وروداً في التوقيعات، كما في مسألة حكم رجل حلف بالبراءة من الله ورسوله ﷺ فحنث بذلك الحلف، فكان توقيع الإمام عليه السلام: «يطعم عشرة مساكين لكل مسكين مدّ، ويستغفر الله عز وجل»[٢]. ولا يخفى أن دلالة الجمل هنا وإن كان ظاهرها الإخبار، إلا أن معناها هو الأمر، أي (فليطعم، وليستغفر)، ولا يخفى ما في هذا الاستعمال من اللطف والتحنن في عدم إصدار الأمر المباشر الذي قد تأنف منه بعض النفوس.

وقد يخرج الأسلوب الخبري إلى معنى الدعاء لغرض التفاؤل وإظهار الحرص والرغبة في وقوع المعنى الإنشائي وتحققه؛ إدخالاً للسرور على المرسل إليه، ونجد ذلك في توقيعات الإمام عليه السلام التي استعمل فيها الجمل الخبرية بصيغة الإخبار بالماضي للدلالة على تحقق الوقوع، وفيه إشعار بأنّ المطلوب في الدعاء للمخاطب قد حصل وتحقق، ومن ذلك ما حصل عندما كتب أحدهم يسأل الإمام الدعاء لوالديه، وكانت الأم غالية والأب مؤمناً، فوقع الإمام «رحم الله والدك»[٣] وكما في توقيع الإمام لأحدهم «آجرك الله وأحسن ثوابك»[٤] فاغتم الرجل ولم يعرف الميت من أهله، فلما كان بعد أيام جاءه خبر وفاة ابنه، فعلم أن التعزية لهذا الولد.

(١) الكليني، المصدر السابق، ج٥، ص٤٧٧؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٤٧٦؛ الحرّ العاملي، المصدر السابق، ج٢٠، ص٤٠٥؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٤٧.

(٢) الميانجي، المصدر نفسه، ج٧، ص٣٦١؛ الميانجي، المصدر نفسه، ج٨، ص٢٩٩؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٧٨؛ الحرّ العاملي، المصدر السابق، ج٢٢، ص٣٩٠؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٤٩.

(٣) الإربلي، المصدر السابق، ج٢، ص٤٢٦؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٥٠، ص٢٩٤؛ والميانجي، المصدر السابق، ج٦، ٤٠٢.

(٤) الكليني، المصدر السابق، ج١، ص١٠٥؛ ابن شهر آشوب، المصدر السابق، ج٤، ص٤٣٢؛ والمجلسي، المصدر السابق، ج٥٠، ص٢٨٥؛ والميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٢٩٩.

مجلة تراث سامراء
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/٢٠٢١م

ولا يخفى أن هذه الجمل وإن كانت خبرية ـ ظاهراً ـ إلّا أنّ المقصود منها هو المعنى الإنشائي، وهو الدعاء للمرسل إليه بتحقق المطلوب، فيكون المعنى: اللهم ارحم والده، اللهم آجره، واحسن ثوابه، وكل ذلك من باب التفاؤل وإظهار الحرص والرغبة في وقوع المعنى الإنشائي وتحققه؛ إدخالاً للسكينة على المرسل إليه، فكأنّ المطلوب قد تحقق فعلاً.

وقد تخرج بعض التوقيعات الخبرية لغرض النهي، فاللفظ في صورته الظاهرية إخبار غير أن المراد منه النهي عن ذلك الفعل، كما في جواب الإمام عن سؤال عن رغبة رجل في أن يحول مجرى النهر في قريته الخاصة مع إضراره برجل يملك رحى على ذلك النهر، فوقع الإمام: «يتقي الله، ويعمل في ذلك بالمعروف، ولا يضر أخاه المؤمن»[١] فاللفظ وان كان إخبارياً في ظاهره غير أن الغرض الذي ينصرف إليه هو الأمر في العبارتين الأوليين والنهي في العبارة الأخيرة.

(١) ينظر: الحرّ العاملي، المصدر السابق، ج٢٢، ص٤٣١؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٣٦.

ثالثاً :الأسلوب الإنشائي:

أما الأسلوب الإنشائي فكان حضوره في المرتبة الثانية بعد الأسلوب الخبري، وكان الحضور الأوفر لأسلوب الأمر أولاً، وأسلوب النهي ثانياً، وأسلوب الاستفهام ثالثاً، والحضور الأقل كان لأسلوب النداء، وذلك بالنظر إلى أن هذه التوقيعات كانت مكتوبة، والنداء يقوم على خصيصة صوتية منطوقة تنظر إلى قرب المخاطب أو بعده عن المتكلم، فلا عجب بعدئذ من قلة هذا الأسلوب واقتصاره على موضعين اثنين[٢] في مجمل التوقيعات التي وصلتنا.

وأسلوب الأمر في التوقيعات قد يأتي على حقيقته التي يراد منها تنفيذ المطلوب على نحو الإلزام، ولكنه قليل الورود[٣]؛ إذ يغلب على أساليب الأمر في توقيعات الإمام أن تأتي لأغراض بلاغية تفهم من السياق وقرائن الأحوال، ولعل

(٢) الكليني المصدر السابق، ج١، ص٩٥؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٤، ص٤٣؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٢٥٥ـ٢٥٦.

(٣) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٩، ص١٩٥؛ المفيد، الاستبصار، ج٤، ص١٢٣؛ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج١٩، ص٢٨٠؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٤٦.

مجلة تراث شاهرة
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

غرض (النصح والإرشاد) أوفر الأغراض حضوراً، كما في جواب الإمام لرجل طلب منه أن يسمي مولوده وأن يضع له كنية، فوقع الإمام: (سمّه جعفراً، وكنّه بأبي عبد الله)[١].

فوافقت هذه التسمية والكنية ما كان الرجل يحب أن يطلق على ولده تماماً.

أما أسلوب النهي فقد ورد في غالب المواضع مراداً به غرض النصح والإرشاد والتوجيه، كما في توقيع الإمام لرجل سأله عن قيامه بدفع الأموال لبعض الأشخاص ليحجوا بها، وإن بعضهم قد أنفق بعض الأموال وبقيت بقية يرغب في إرجاعها، وإنّ السائل يروم مطالبة من لم يأته بما دفع إليه، فكتب الإمام: (لا تعرض لمن لم يأتك، ولا تأخذ ممن أتاك شيئاً مما يأتيك به، والأجر قد وقع على الله عزّ وجلّ)[٢].

أما أسلوب الاستفهام في التوقيعات فلم يرد على حقيقته التي يراد منها طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، بالنظر إلى استناد علم الإمام واتصاله بمصدر التشريع الإلهي كما هو معلوم، ولذا جاءت الاستفهامات في التوقيعات لأغراض بلاغية، ولعل أوضح هذا الأغراض حضوراً هو غرض (الإنكار) على المعترضين، كما حصل عندما تكلم أحدهم بِشأن قيام الإمام بشقّ قميصه في جنازة والده الإمام الهادي عليه السلام مدعين أن هذا الأمر لم يحصل من الأئمة السابقين، فوقع الإمام: (يا أحمق، ما يدريك ما هذا؟ قد شقّ موسى على هارون عليه السلام)[٣].

ومثاله أيضاً ما في توقيع الإمام بشأن شخص أمر له الإمام بمبلغ من المال فأبى تقبلّه، فوقع الإمام بشأنه مستعملاً الاستفهام الإنكاري على هذا الصنيع: (قد كنا أمرنا له بمئة ألف دينار، ثم أمرنا له بمثلها فأبى قبوله إبقاء علينا، ما للناس والدخول في أمرنا في ما لم ندخلهم فيه)[٤]. فالإمام في ختام التوقيع لا يستفهم، وإنما ينكر هذا الصنيع الذي قام به هذا الشخص من رفض عطية الإمام، ويعدّ

(١) الإربلي، المصدر السابق، ج٢، ص١٦؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٥٠، ص٢٩٦؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٠٧.

(٢) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٤٢٢؛ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج١١، ص١٨٠؛ والميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٣٣.

(٣) الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٢٢.

(٤) الطوسي، الغيبة، ص٢١٨؛ المجلسي، المصدر السابق، ج٥٠، ص٢٢٠؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٢٨٠.

ذلك من قبيل الإشفاق في غير محله، كما يعدّه من الدخول في شأن الإمامة الخاص بينهم وبين خالقهم، فهم أعرف بمتى وكيف ولمن؟ يعطون عطياتهم.

رابعاً: أسلوب النفي والاستثناء:

حضر أسلوب النفي، الاستثناء في التوقيعات الفقهية حضوراً ملفتاً؛ ذلك أن الأحكام الفقهية بها حاجة إلى الحصر والتقييد حتى تكون تلك الأحكام غير قابلة للتأويل والاختلاف، كما في جواب الإمام عن الحكم الشرعي في من اشترى شيئاً من الطعام ولم يدفع الثمن ثم ارتفع سعر ذلك الطعام أو نقص، فبأي السعرين يدفع المشتري؟ فوقّع الإمام بأسلوب الحصر والاستثناء القاطع: (ليس له إلّا على حسب سعر وقت ما دفع إليه الطعام إن شاء الله)[١].

وكما في جواب الإمام عن حكم (رجل اشترى من رجل نصف دار مشاعاً غير مقسوم، وكان شريكه الذي له النصف الآخر غائباً، فلما قبضها وتحول عنها تهدّمت بفعل السيل الجارف الدار، وعندما عاد الشريك الغائب طلب الشفعة منه، فأعطاه الشفعة على أن يعطيه ماله الذي دفعه كاملاً، فقال له: ضع عني قيمة البناء؛ لأنه تهدم بفعل السيل، ما الذي يجب في ذلك؟ فوقّع عليه السلام بتوظيف الحصر والاستثناء: (ليس له إلا الشراء والبيع الأول إن شاء الله)[٢]، ويتضح كيف أصبح الحكم بالحصر والاستثناء محدداً مقيداً ولا سبيل إلى الذهاب به يميناً أو شمالاً.

خامساً: تعليق الأحكام بالمشيئة الإلهية:

كثيراً ما تختم التوقيعات الخاصة بالأحكام الفقهية بتعليقها على مشيئة الله بلفظ (إن شاء الله)، وهذا الاستعمال يُعدّ من أبواب التأدب مع الخالق عزّ وجلّ، فهو إقرار بأن العبد غير مستقل في اتّخاذ القرارات، وأن قوّته مستمدة من قوّة الله العظيمة، وأنّها مرتبطة بقدرته القادرة، وإذا لم تكن المشيئة الإلهية فلا يمكن لأي قوة إمضاء الأفعال، فصيغة (المشيئة) هي امتثال للأمر الإلهي القائل: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً* إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ**

(١) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٦، ص١٩٦؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٣٤.

(٢) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٧، ص١٩٢؛ الحرّ العاملي، المصدر السابق، ج٢٥، ص٤٠٥؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٤١.

مجلة تراث شاهرة
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾[١].

ومن أمثلة ورود هذه الصيغة في التوقيعات، ما في جواب الإمام عن حكم رجل مات وعليه قضاء من شهر رمضان عشرة أيام، وله وليّان، هل يجوز لهما أن يقضيا عنه جميعا، خمسة أيام أحد الوليين وخمسة أيام الآخر؟ فوقع عليه السلام: (يقضي عنه أكبر وليه عشرة أيام ولاءً إن شاء الله)[٢].

وكما في جواب الإمام عن حكم الوقف في روايات أهل البيت عليهم السلام، فوقع عليه السلام: (الوقوف على حسب ما يقفها أهلها إن شاء الله)[٣]، فلا حكم يمضي ما لم تكن المشيئة الإلهية حاضرة.

سادساً: أسلوب الشرط والجزاء:

قد ترد الجمل الشرطية في توقيعات الإمام لتؤدي شكلاً من صور الاحتياط لما يمكن أن يكون عليه الحكم في حال حضور ظرف معين تلازمه نتيجة محتومة، لا تكاد تفترق عنه، فلولا الظرف المتقدم لما ترتبت النتيجة، ويظهر هذا الملمح الأسلوبي في التوقيعات الخاصة بالأحكام الفقهية بصورة أكثر وضوحاً، كما في جواب الإمام عن حكم من اشترى دابة فأحدث فيها حدثاً، ثم بدا له أن يردها؟ فوقع عليه السلام بتركيب شرطي مرتباً الجزاء المؤكد بـ(قد) على الشرط: (إذا أحدث فيها حدثاً فقد وجب الشراء إن شاء الله تعالى)[٤].

وكما في جواب الإمام عن حكم من اشترى بقرة، فلما ذبحها وجد في جوفها صرّة فيها بعض المال، لمن يكون ذلك؟ قال: فوقع الإمام عليه السلام: (عرّفها البائع، فإن لم يكن يعرفها فالشيء لك، رزقك الله إياه)[٥]. ويظهر في التوقيع كيف سلسل

---

(١) سورة الكهف، آية ٢٢-٢٣.

(٢) الكليني، المصدر السابق، ج٤، ص١٢٤؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٤، ص٢٤٧؛ المفيد، الاستبصار، ج٢، ص١٠٨؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص١٥٤؛ الحرّ العاملي، المصدر السابق، ج١٠، ص٣٣٠؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٣١.

(٣) ينظر: الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٩، ص١٣٠؛ والحرّ العاملي، المصدر السابق، ج١١، ص١٧٥؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٤١.

(٤) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٧، ص٧٥؛ والحرّ العاملي، المصدر السابق، ج١٨، ص١٣؛ الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٤٠.

(٥) الكليني، المصدر السابق، ج٥، ص١٣٩؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٦، ص٣٩٢؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٢٩٦؛

الإمام الحكم بالقيام أولاً بتعريف تلك الصرّة لصاحب الدابة، ثم رتب الشرط والجزاء على ذلك، وختم التوقيع بالدعاء للسائل.

خاتمة البحث ونتائجه:

وفي ختام البحث نجمل أهم النتائج التي أسفر عنها والتي يمكن تلخيصها بالآتي:

- وفرة التوقيعات عند الأئمة عليهم السلام تتناسب طرداً مع ظروف التضييق على حركة الأئمة، فكلما زاد التضييق كلما اتسعت التوقيعات وكثرت، بوصفها وسيلة ناجحة في التواصل مع القواعد الشعبية.

- تلخصت مضامين التوقيعات في محاور رئيسة، هي: توقيعات المسائل العقائدية، وتوقيعات نشر الطمأنينة في نفوس المحبين، وتوقيعات الردّ على المعترضين، وتوقيعات الإجابة على طلب الدعاء، وتوقيعات الأحكام الفقهية، وتوقيعات التحذير من المخاطر.

- كانت التوقيعات في طابعها العام من إنشاء الإمام وإبداعه، ويكاد يختفي التناص بينها وبين النصوص السابقة تماماً، وكان الإمام يتولى الإجابة بنفسه على تلك الرقاع والرسائل.

- طبعت لغة التوقيعات بطابع اللغة الواضحة السهلة البعيدة عن التعقيد والوعورة والغموض.

- غلب التعبير الموجز على لغة تلك التوقيعات، وقد يستدعي المقام أو حال المتلقي ـ في أحيان قليلة ـ أن يطيل الإمام في توقيعه لضرورة يقتضيها سياق الحال فيعمد الإمام إلى تفصيل بعض الأمور دون أن يخل ذلك بسمة الإيجاز العامة التي طبعت التوقيعات بطابعها.

- التوقيعات بشكل عام ذات جمل قصيرة مركزة، وهو ما يتناسب مع الغرض المطلوب منها، فهي توقيعات غرضها الأساس الإبلاغ عن رأي الإمام عليه السلام بمسألة معينة، على نحو الاختصار.

- غلبة الجمل ذات الطابع الخبري على التوقيعات، وقد جاءت الجمل الإخبارية حاسمة في مضمونها، وبلغة جازمة عارفة بالحكم القطعي للموضوع، وبنبرة واثقة متأكدة من النتيجة.

- الأسلوب الإنشائي كان حضوره في المرتبة الثانية بعد الأسلوب الخبري في التوقيعات، وكان الحضور الأوفر

الميانجي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٥٠.

لأسلوب الأمر أولاً، وأسلوب النهي ثانياً، وأسلوب الاستفهام ثالثاً، وغلب الاستعمال المجازي على مقاصد هذه الأساليب.

- فيما يخص التوقيعات الفقهية فقد شهدت حضور ثلاث خصائص أسلوبية: الأولى: أسلوب النفي والاستثناء؛ ذلك بالنظر إلى حاجة الأحكام الفقهية إلى الحصر والتقييد حتى تكون تلك الأحكام غير قابلة للتأويل والاختلاف.

الثانية: ختام تلك التوقيعات الخاصة بالأحكام الفقهية بتعليقها على مشيئة الله بلفظ (إن شاء الله)، وهذا الاستعمال باب من أبواب التأدب مع الخالق.

الثالثة: ورود الجمل الشرطية لتؤدي شكلاً من صور الاحتياط لما يمكن أن يكون عليه الحكم في حال حضور ظرف معين تلازمه نتيجة محتومة، لا تكاد تفترق عنه.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١) ابن شهر آشوب، أبو جعفر رشيد الدين محمد بن علي المازندراني (ت٥٨٨هـ)، مناقب آل أبي طالب، المطبعة العلمية، قم، (د.ت).

٢) ابن طاووس، رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد(٦٤٤هـ)، فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، دار الذخائر للمطبوعات، قم ـ إيران، (د.ت).

٣) ابن طاووس، رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد (٦٤٤هـ)، مهج الدعوات ومنهج العبادات، دار الذخائر، قم، ١٤١١هـ.

٤) ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الأفريقي (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، الناشر: دار صادر، بيروت، ١٤١٤ هـ، ط٣.

٥) الإربلي، علي بن عيسى (ت٦٨٧هـ)، كشف الغمة في معرفة الأئمة، تصحيح: هاشم الرسولي المحلاتي، دار الكتاب الإسلامي، بيروت،

مجلة تراث سامراء
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/٢٠٢١م

١٤٠١هـ.

٦) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن (ت١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤٠٩هـ.

٧) الحِميري، أبو العباس عبد الله بن جعفر القمي(ت بعد ٣٠٤هـ)، قُرب الإسناد، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤١٣هـ.

٨) الراوندي، أبو الحسين سعيد بن عبد الله قطب الدين(ت٥٧٣هـ)، الخرائج والجرائح، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، قم، ١٤٠٩هـ.

٩) الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي(ت٣٨١هـ)، كمال الدين وتمام النعمة، دار المتقين للثقافة والعلوم والطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ١٤٣٥ هـ.

١٠) الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي(ت٣٨١هـ)، من لا يحضره الفقيه، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٩٠هـ.

١١) الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي، تحقيق جواد القيومي الأصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٢٧هـ.

١٢) الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، الاستبصار فيما أختلف من الأخبار، تحقيق حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران، (د.ت).

١٣) الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، الغيبة، تحقيق عباد الله الطهراني وعلي أحمد ناصح، مؤسسة المعرف الإسلامية، قم، ١٤١١هـ.

١٤) الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، تهذيب الأحكام في شرح المقنعة، دار التعارف، بيروت، ١٤٠١هـ.

١٥) العُريضي، أبو الحسن، مسائل علي بن جعفر، تحقيق وجمع: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام، قم، إيران، ١٤٠٩هـ.

١٦) القطيفي، الشيخ نزار آل سنبل، قراءة في توقيعات الناحية المقدسة، مجلة الموعود، العدد ١، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م.

١٧) الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي ثقة الإسلام (٣٢٩هـ)، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ.

١٨) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي الدين (ت ١١١٠هـ)، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تحقيق ونشر: دار إحياء التراث، بيروت، ١٤١٢هـ، ط٢.

١٩) محمود، عبد الرحيم صالح، فنون النثر في الأدب العباسي، وزارة الثقافة، عمان، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٢٠) المفيد، أبو عبد الله محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت٦١٣هـ)، الإرشاد إلى معرفة حجج الله على العباد، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤١٣هـ.

٢١) الميانجي، علي الأحمدي، مكاتيب الأئمة، تحقيق مجتبى الفرجي، دار الحديث للطباعة والنشر، قم، ط ٢، ١٤٣٠ هـ.

٢٢) النوري، ميرزا حسين بن الميرزا محمد تقي بن علي (ت١٣٢٠هـ)خاتمة مستدرك الوسائل، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، (د.ت).

مجلة تراث شاهرة
العدد: الرابع
السنة: الثانية
١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م